البحث البلاغي
بين الاستشراق والاستغراب

بحث مقدم
إلى المؤتمر العلمي الأول
تجديد العلوم العربية والإسلامية بين الأصالة والمعاصرة
المنعقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق
جامعة الأزهر ٢٠/٣/٢٠٢١

إعـــــداد
الدكتـــور
حامد محمود حامد عوض
مدرس البلاغة والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدسوق

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، خلق المشارق والمغارب والخلق أجمعين، وجعل من آياته اختلاف ألسنة الناس وألوانهم، والصلاة والسلام على من أرسله ربه للناس كافة بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أما بعد.

فمن سنن الله عز وجل الكونية أن جعل أمم الأرض مختلفة الثقافات والحضارات والمشارب والغايات، وقد أمر الله _عز وجل_ عباده أن يطلبوا العلم والمعرفة وأن يتعارفوا على اختلاف مشاربهم وألسنتهم وألوانهم، فتبادل العلوم والمعارف بين الأمم والشعوب من الأمور المحمودة التي دعا إليها ديننا الحنيف ودعت إليها ثقافة العربية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ (الحجرات: ١٣).

ومنذ إشراق الرسالة الحضارية للإسلام والعربية ظهرت محاولات عديدة لهذا التبادل المعرفي الذي أمرنا الله _تعالى_ به، فبعد أن انتشرت هذه الرسالة الحضارية في أقطار العالم استبشرت العربية بأنصارها من العلماء الأجلاء الذين رفعوا رايتها من غير العرب، هؤلاء العلماء الكبار الذين حوت قلوبهم وعقولهم علوم الإسلام والعربية، فأنتجت هذه العقول الذكية والقلوب السليمة فكرا راقيا وإضافات ملموسة كان لها دور بارز في إشراق الحضارة العربية وتألقها، وكانت هذه الجهود الزكية من أولى محاولات التبادل المعرفي في الحضارة العربية.

وعلى مدار هذا التاريخ الناصع للحضارة العربية تواصل التبادل المعرفي والتلاقي الحضاري بكل ترحاب، ودون أدنى غضاضة من العرب، من خلال الترجمة ونسخ

الكتب والرحلات العلمية وأسفار العلماء، وانعكس هذا التبادل على كل علوم العربية، ومنها علم البلاغة، على الرغم من خصوصية نشأته التي قامت على البحث في إعجاز القرآن الكريم.

وبعد طول أمد تبدل الحال وتغيرت الأمور وأخذت موازين اليقظة والحضارة في التحول، فمالت كفة التيقظ إلى جانب آخر، هذا الجانب الذي أبدى رغبته من أول وهلة في بسط هيمنته من خلال خطط ممنهجة لبسط الهيمنة الحضارية على الأمة التي أخذ السبات ينتشر فيها ومعه الجهل والفقر والتأخر، فلم يفوت الطامعون الفرصة، وبدأوا في عمل دؤوب بخطوات مدروسة.

كان من هذه الخطوات المدروسة: ظاهرتا الاستشراق والاستغراب، وهما ظاهرتان من ظواهر التبادل الفكري والثقافي بين الشرق والغرب، اختصت الظاهرة الأولى بالدارسين الغربيين للحضارة العربية، أما الظاهرة الثانية، فأربابها من أبناء اللسان العربي الذين تبحروا في الحضارة الغربية أو تأثروا بها، وقد تناول أرباب الظاهرتين البحث البلاغي العربي أثناء عرض أطروحاتهم ورؤيتهم لتجديد البلاغة العربية، حيث نظر أرباب كل ظاهرة إلى البلاغة العربية من منظور خاص، ومهما يكن من أمر فإن تقييم ظاهرتي الاستشراق والاستغراب بإيجابياتهما وسلبياتهما أمر له مجاله الخاص، لكن الذي يعنى به قارئ هذا البحث هو علاقة هاتين الظاهرتين بالدرس البلاغي؛ لأن المتوقع من سماع كلمة: (استغراب) أن تكون مقابلةً لكلمة (الاستشراق) الآنفة الذكر؛ لأن بينهما طباقا، أي تقابلا في المعنى، فالمصطلح الأول طلب لما عند الشرق، والمصطلح الثاني طلب لما عند الغرب، فهل كان هناك كذلك تقابل في الأهداف والغايات والنتائج في نظرتهم للبلاغة العربية، وهذه هي الإشكالية التي يحاول هذا البحث المتواضع أن يسهم في الإجابة عليها؛ لأنه من الواضح تماما أن منازع الظاهرة

الأولى وأهدافها والنتائج التي خرجت بها كانت لخدمة طرف دون آخر، وهو الطرف الغربي ـ بلا شك ـ ، فكان من الأولى والأقسط أن يكون الحفاظ على تراث الأمة وتجديد علومها بالاعتزاز به هو هدف أبناء العربية الذي لا يحيدون عنه طرفة عين، لا أن يكون كل من التوجهين من أبناء الغرب في الاستشراق ومن أبناء العرب في الاستغراب يخدم ـ في أكثره ـ فكرا واحدا وهدفا واحدا وغاية واحدة، تلك إذا قسمة ضيزى.

وهذه الدراسة حاولت أن يكون لها إسهام في هذا المجال المؤثر من خلال بيان نظرة أرباب الظاهرتين للبحث البلاغي عبر الإجابة عن هذه الأسئلة: ما مفهوم هاتين الظاهرتين في الدرس البلاغي؟، وهل تقابل ظاهرة الاستشراق ظاهرة الاستغراب في هذا الميدان؟ وما الآثار التي بدت واضحة عند رواد المستشرقين والمستغربين في الدرس البلاغي؟ وما المنازع التي أدت لهذه السلبيات؟

ومنهج البحث وأدواته: المنهج النقدي من خلال استقراء النتاج الفكري لرواد هاتين الظاهرتين في الدرس البلاغي ومناقشة أبرز السلبيات الواردة في نتاجهم عند استلهامهم لهما ودعوتهم إلى تجديد البلاغة من خلال هذا الفكر، فقد ناقش البحث في كل ظاهرة أطروحات البداية أولا وأول من قام بها، ثم مناقشة أفكار أبرز رواد الظاهرة بعد ذلك في مجال الدرس البلاغي.

وهذا ما حاولت أن تنهض به هذه الدراسة من خلال المقدمة ثم المباحث الآتية:

المبحث الأول: الاستشراق وأثره على البحث البلاغي، وفيه مطلبان:

أولا: في التحقيق والفهرسة.

ثانيا: في جانب التأليف.

المبحث الثاني: الاستغراب وأثره على البحث البلاغي، وفيه مطلبان:

أولا: الشيخ أمين الخولي، وكتاب فن القول.

ثانيا: الدكتور صلاح فضل، وكتاب بلاغة الخطاب وعلم النص.

المبحث الثالث: لماذا فشل الاستشراق والاستغراب في النهوض بالدرس البلاغي، وفيه مطلبان:

أولا: تعلق البلاغة العربية بإعجاز القرآن الكريم.

ثانيا: التباين الكبير بين اللغة العربية واللغات الأوربية.

ثم الخاتمة التي فيها أهم ما توصل إليه هذا البحث، ثم فهرس المراجع.

والله أسأل أن يكتب لهذه الأطروحة البحثية التوفيق والقبول والسداد؛ إنه بكل جميل كفيل، وصل اللهم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

د/حامد محمود حامد عوض

مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدسوق جامعة الأزهر

المبحث الأول:الاستشراق وأثره على البحث البلاغي.

ظاهرة الاستشراق هي ظاهرة قام عليها مجموعة من الغربيين الذين تفرغوا لدراسة الحضارة الإسلامية والعربية، وصرفوا لها همومهم بحثا ودراسة وتحقيقا وترجمة، فكانت لهم إسهاماتهم الإيجابية والسلبية، فبعضهم درس حضارتنا وأبرز عظمتها، وكثير منهم طعن فيها وبث سمومه قدحا وكذبا وتدليسا، ومما يدل على أهمية هذه الظاهرة في البحث البلاغي أن شيخ العربية في العصر الحديث بحث هذه الظاهرة وناقش منهجيتها وأهدافها في أسفاره القيمة التي منها: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، وأباطيل وأسمار، وقام بعرض جذورها وإرهاصاتها ومنهجها الذي ينبئ عما (قبل المنهج) أي الأساس الذي لا يقوم المنهج إلا عليه كما ذكر أبو فهر _رحمه الله_ والذي يتكون من: (اللغة والثقافة والأهواء)، ثم المنهج بشطريه: (المادة)، و(التطبيق) [١]، فكان هذا التأصيل هو أساس نقده _رحمه الله_ لهذه الظاهرة _المتعلقة تعلقا جوهريا بصُلب هذا البحث الذي يتناول الاستشراق والاستغراب في الدرس البلاغي_، فبعد هذا التمهيد عن المنهج وما قبل المنهج تحدث _طيب الله ثراه _عن المستشرقين فقال:" وهم أهم وأعظم طبقة تمخضت عنها اليقظة الأوربية ... الذين وهبوا أنفسهم للجهاد الأكبر ورضوا لأنفسهم أن يظلوا مغمورين في حياة بدأت تموج بالحركة والغنى والصيت الذائع وحبسوا أنفسهم وراء أكداس من الكتب مكتوبة بلسان غير لسان أممهم الذين ينتمون إليها، وفي قلوبهم كل اللهيب الممض الذي في قلب أوربه، والذي أحدثته فجيعة سقوط الأندلس في حوزة الإسلام... وبفضل هؤلاء المتبتلين ...نشأت طبقة الساسة الذين يعدون ما استطاعوا من عدة لرد غائلة الإسلام ثم قهره في عقر داره"[٢].

---

(١) ينظر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا للشيخ أبي فهر محمود محمد شاكر، من ص٢٢ :٣٤، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.

(٢) ينظر السابق، ص٤٩و٥٠.

فالاستشراق بتعبير موجز: دراسة يقوم بها الغربيّون لتراث الشرق وبخاصة كل ما يتعلق بتأريخه، ولغاته، وآدابه، وفنونه، وعلومه، وتقاليده وعاداته[١]؛ لهذا يرى المستشرق الألماني المعاصر: (ألبرت ديتريش) أن المستشرق: هو ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه، ولن يتأتّى له الوصول إلى نتائج سليمة ما لم يتقن لغات الشرق [٢].

وإذا نظرنا إلى جهود المستشرقين في ميدان البحث البلاغي سنجد أنها تمحورت حول الجهود الآتية:

إما التحقيق والفهرسة، وإما التأليف.

أولا: التحقيق والفهرسة:

التحقيق هو عمل علمي مضن يعتمد على جمع مادة علمية بطريقة منهجية سليمة وإخراجها في صورة صحيحة من اللبس والخطأ والتصحيف، وهذا هو ما يفهم من المعنى اللغوي للتحقيق، حيث إن التحقيق في اللغة: العلم بالشيء، ومعرفة حقيقته على وجه اليقين، "تَقُولُ: حَقَّقْت الأَمر وأَحْقَقْته إِذَا كُنْتَ عَلَى يَقِينٍ مِنْهُ "[٣].

والتحقيق في الاصطلاح: هو الفحص العلمي للنصوص، من حيث مصدرها، وصحة نصها، و، وصفاتها، ولكي يؤدي المحقق هذه المهمة بنجاح لابد له أن يحصل من العلوم والمهارات ما يعينه على أدائها بنجاح وهي: أن يكون عارفًا باللُّغة العربية –

---

(١) المعجم الأدبي، جبور عبد النور ص ١٧، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩ م.

(٢)الدراسات العربية في ألمانيا، تطوّرها التأريخي ووضعها الحالي، (البرت ديتريش) ص٧، جوتنجن / ١٩٦٢ م.

(٣) لسان العرب، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) ، حرف القاف فصل الحاء، (١٠/ ٤٩)، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

ألفاظها وأساليبها – معرفةً وافية، وأن يكون ذا ثقافةٍ عامة، وأن يكون على علم بأنواع الخطوط العربية، وأطوارها التاريخية، وأن يكون على دراية كافية بالمراجع والمصادر العربية، وفهارس الكتب العربية، وأن يكون عارفًا بقواعد تحقيق المخطوطات، وأصول نشر الكتب.

بالإضافة إلى أنه لابد للمحقق أن يتحلى بمؤهلات خاصة في التخصص الدقيق الذي هو موضوع تحقيقه، فلا بد للمحقق أن يكون متخصصًا به، عارفًا بأصوله، فمن أراد تحقيق علم من علوم العربية لابد أن يكون ملما بأسس هذا العلم عند العرب، ومن خلال هذه الشروط يتبين أن قيام المستشرقين بهذا العمل أمر من الصعوبة والشدة بمكان؛ فبحوثهم الجادة في هذا المجال تدل على هذا الجهد الضخم الذي تحملوه في سبيل هذه البحوث، مما يكشف عن معاناة كبيرة وصبر وتحمل شديدين في دراسة لغة غير التي نشأوا فيها.

والحق أن للاستشراق حسنات في هذا المجال، حيث نشر الاستشراق من البحوث ما له قيمة كبيرة في هذا الميدان أعني ميدان الفهرسة والتحقيق، وأبرز هذه الجهود وأعظمها أثرا على بحوث الإسلام والعربية هو فهرسة ألفاظ القرآن والسنة، "أما فهرسة القرآن بإطارها العلمي المنظم فقد بدأت في أوائل القرن التاسع عشر، وقد تأصلت فيما وصل إلينا عند المستشرق الألماني الأستاذ (جوستاف فلوجل) حينما ألّف أول معجم مفهرس للقرآن الكريم في اللغة العربية، عني بألفاظ القرآن ومفرداته وأسماه: (نجوم الفرقان في أطراف القرآن)، وطبع لأول مرة عام (١٨٤٢ م) في

ليبزيج، وقد كان هذا الكتاب نواة صالحة، بل أساسا محكما، اعتمد عليه محمد فؤاد عبد الباقي في وضع: (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم)"[١][٢].

ومن الجهود الطيبة في هذا المجال كذلك: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي للمستشرق الهولندي (فنسنك)، هذا المعجم الضخم الذي ألفه (فنسك) مع جماعة من المستشرقين، " فقد فهرسوا جميع ألفاظ الكتب الستة وموطأ مالك ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وسنن الدارمي وهذه من أمهات كتب الحديث، ورتبوا هذه الألفاظ على حروف المعجم وذكروا تحت كل لفظة الأحاديث التي وردت فيها هذه اللفظة، ورمزوا لمن أخرج تلك الأحاديث من أصحاب الكتب التي فهرسوا لها، وهذا المعجم من أوسع المعاجم وأسهلها؛ ذلك لأنه يكفي أن يعرف الباحث كلمة واحدة من الحديث الذي يبحث عنه ليقف على الحديث كاملًا، ويعرف مخرجيه "[٣]، ومثل هذه الجهود الطيبة في الفهرسة والتحقيق من الممكن أن يستفيد منها البحث البلاغي استفادة بالغة عند النظر في الفروق الدلالية بين الألفاظ المختلفة في الكتاب والسنة، فهذا الأمر فتح ولا يزال يفتح أبوابا من الخير والعلم والمعرفة لمن أراد أن يعطر قلمه في البحث عن بلاغة القرآن وروعة بيان السنة، وفي مجال تاريخ الأدب تحسب لهم

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، المقدّمة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٦٤هـ.

(٢) المستشرقون والدّراسات القرآنيّة، الدكتور محمد حسين علي الصّغير، ص ٧٦، الناشر: دار المؤرّخ العربي بيروت، الطبعة الأولى.

(٣) لمحات في المكتبة والبحث والمصادر محمد عجاج بن محمد تميم بن صالح بن عبد الله الخطيب، (ص: ٢٠٢)، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: التاسعة عشر ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.

مصنفات مثل: "تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، فهذه وغيرها جهود تصنيفية لا يمكن الاستغناء عنها والتهوين من شأنها"(١).

أما ما يتصل بالبحث البلاغي بصفة مباشرة فلعل أبرز هذه التحقيقات هو ما قام به المستشرق الألماني (هملوت ريتر)،(١٨٩٢_١٩٧١)، في عمله الطيب وجهده المشكور في تحقيقه لأسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله، ونشر هذا الكتاب القيم عام ١٩٥٤م، ومن الواضح أن (ريتر) قام بهذا الجهد بإنصاف وموضوعية، فقد قرر في تعقيبه على الكتاب أن أسلوب الإمام عبد القاهر الجرجاني "واضح ومتنوع ويعلو على جفاء الكتابة المتعلمة ...فهذا الكتاب إنما هو رائعة أدبية في الأدب العربي ليس لمحتواه فحسب، وإنما للتحليل العميق في الإبداع الشعري وكذا في الأسلوب"(٢)، وقد أثنى الشيخ محمود شاكر في مقدمته لأسرار البلاغة على جهده الكبير _على الرغم من موقف الشيخ شاكر المعروف من الاستشراق_ فقال: "ومع ذلك فجهد(ريتر) جهد مشكور في نشر هذا الكتاب الجليل، مع ما في طبعته من عيوب أخر أشرت إليها أحيانا في تعليقي على الكتاب"(٣)، وبالإضافة إلى هذا الجهد، قام (ريتر) بدراسة موجزة في أصول البيان العربي وضمنها في آخر تحقيقه لكتاب أسرار

(١) المستشرقون والشعر الجاهلي بين الشك والتوثيق، د/يحيى وهيب الجبوري، ص١٢، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

(٢) المستشرق (هـ _ ريتر)، ومقدمته عن أصول البيان العربي، قراءة في ضوء الاستشراق الألماني، أ.د حامد الظالمي، ص١٢٩، ط المركز الإسلامي للدراسات الإستشراقية، العدد السادس ٢٠١٦م.

(٣) مقدمة أسرار البلاغة، ص٩،تحقيق الشيخ محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

البلاغة، وقد آثر الشيخ شاكر ـرحمه اللهـ عدم نشر ترجمة هذه الدراسة نزولا على مشورة أحد أصدقائه كما ذكر ـرحمه اللهـ في مقدمته، حيث رآها ـرحمه اللهـ قليلة الفائدة، وهذا ما سينقلنا للنقطة التالية في جهود المستشرقين في التأليف في البحث البلاغي.

ثانيا: جانب التأليف.

وهذا هو الجانب الذي ظهر فيه العوار الكبير في نظرات المستشرقين القاصرة للبلاغة العربية بصفة عامة وأخص بالذكر مجالي إعجاز القرآن الكريم، ونظرتهم للشعر الجاهلي، فقد تناولتهما بحوث المستشرقين قبل أن يتحلوا بالأهلية التي تمكنهم من الولوج في هذا الباب العظيم والذي لا سبيل لخوض غماره إلا لمن تمكن في لغة العرب ودارس طرائقهم في الإبانة وتكونت لديه الملكة البلاغية والذائقة البيانية التي لم يسعوا لتحصيلها.

وأبدأ بذكر البحوث البلاغية في دراسات المستشرقين للشعر العربي، خاصة في مجال الشعر الجاهلي، وذلك تماشيا مع سنة علمائنا في أن فهم الشعر ودراسة بلاغته هو سبيل معرفة إعجاز القرآن الكريم، وأنه لابد أن تثبت قدم الباحث في فهم الشعر وتذوقه قبل أن يتبحر في بلاغة الكتاب العزيز.

أول هذه البحوث للمستشرق: (نولدكه) بعنوان: حول الشعر العربي[١]، "وقد اعترف بأن ما يبدو غريبا من الشعر بالنسبة للمستشرق الأجنبي هو شيء طبيعي مألوف بالنسبة لأصل ذلك الشعر"[٢]، وتوقع (نولدكه) أن يكون تغير سياقات الشعر

(١) طبع هذا البحث في هانوفر: ألمانيا ١٨٦٤م، وترجمه عبد الرحمن بدوي في كتابه: دراسات المستشرقين حول صحة القرآن الكريم، ط دار العلم للملايين، بيروت،١٩٧٩ م.

(٢) المستشرقون والشعر الجاهلي بين الشك والتوثيق، د/يحيى وهيب الجبوري، ص13.

الجاهلي هو من أخطاء الرواية، وإن كان قد اعترف مسبقا بصعوبة فهمه لهذه السياقات المتنوعة، وهذا التأدب الواضح في كلام هذا المستشرق لم يستمر مع من جاء بعده من المستشرقين الذين وصل بهم الغرور والبعد عن المنهجية السليمة إلى أن أنكروا الشعر الجاهلي من أساسه لأسباب بعضها تاريخي أو ديني وبعضها لغوي وبلاغي.

والذي يعنينا هاهنا هو السبب البلاغي الذي دعاهم لهذه النتيجة الواهية التي تجلت في بحث: (مرجليوث): أصول الشعر العربي عام ١٩٢٥م، حيث توهم ـ بمكر خبيث ـ أن الأوزان الشعرية هي تطور لما قال عنه إنه سجع في القرآن، وبناء على هذا الخيال المريض أنكر الشعر الجاهلي وحجته الساقطة :"أن الأدب يتطور من الشذوذ إلى الانتظام، والشعر الذي قيل إنه جاهلي هو مرحلة تالية للقرآن؛ لأن في القرآن سجعا، وبعض الآيات فيها وزن، فينبغي أن يكون الشعر تطورا للقرآن لا سابقا عليه"[(١)]، وهذه المقولة الخطيرة لا ينبغي أن تمر مرور الكرام، حيث تضمنت جملة من المغالطات والأخطاء الشنيعة: أولها أنه يلمز بالقرآن الكريم ويصوره في صورة الشذوذ الذي تم نضجه وانتظامه في الشعر الذي تلاه، وكبرت كلمة خرجت من فيه، وعظمت شناعتها، فلو كان الأمر كذلك لكان هينا على أصغر شاعر في العرب أن يأتي بمثل أقصر سورة من القرآن، ولو حدث ذلك لتواترت الأخبار بنقله، ولكن الذي حدث أن الله عز وجل تحداهم وأمرهم هذا الأمر الذي خرج إلى معنى التحدي في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (البقرة: ٢٣)، فعجزوا وألجؤوا إلى السيف والقتال وتقطيع المهج والأرحام كما قال الإمام الخطابي رحمه الله، لكنهم لم

(١) المصدر السابق، ٥٢.

يجرؤوا على هذا الادعاء الخبيث؛ لأنهم كانوا يعرفون خطورته ولوازمه، ويفرقون بين أصناف الكلام ويعلمون من فصاحتهم وبيانهم أن هذا الكلام لا يشبه كلام البشر ولا يقارن به في حال من الأحوال، وإذا كان هذا الاتهام المريض صحيحا بادعاء أن القرآن أقل مرتبة من الشعر فلماذا لم يأت (مرجليوث) وتلاميذه بمثل أقصر سورة من القرآن؟، فالتحدي لا يزال قائما إلى يوم الساعة، أما وقد عجز فما كان له أن يأتي بهذه الافتراءات الكاذبة.

ثانيا: حجة (مرجليوث) في هذا الكلام الساقط أن ما أسماه سجعا في القرآن ووزنا في بعض أبياته هو نواة للشعر لمجرد أن هذا السجع المزعوم يشبه في خياله الأوزان والقوافي في الشعر، وشتان شتان، بين السجع كمحسن لفظي منه المستساغ المحمود، ومنه المتكلف المذموم، وبين فواصل القرآن العظيم، ففواصل القرآن نظمت بدقة عجيبة دالة على إعجاز بياني من جهة الدلالة ومن جهة الصوت على حد سواء، فهي من جهة الدلالة تتوافق مع مضمون الآية، ومن جهة الصوت تتوافق مع الإيقاع العام للآيات السابقة واللاحقة، حتى إن السامع إذا كان ذا نظر ثاقب بفن الكلم وسمع الفاصلة أدرك موقعها ، "قال الأصمعي: كنت أقرأ المائدة وبجنبي أعرابي، فقرأت هذه الآية: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ (المائدة: ٣٨)، فقلت: نكالا من الله والله غفور رحيم. سهوا، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله. قال: أعد. فأعدت: والله غفور رحيم. فقال: ليس هذا كلام الله. فتنبهت وقرأت: [وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [المائدة: ٣٨]، فقال: أصبت، هذا كلام الله. قلت له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. قلت: فمن أين علمت أني

أخطأت؟ قال: يا هذا، عز فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع"[١]، وهذا الفهم الذي فهمه الأعرابي يخبرنا لماذا لم يدَّع عقلاء العرب أن القرآن يشبه كلامهم، فالجواب بكل بساطة أنهم أدركوا عظمة القرآن بفطرتهم وسليقتهم، مع أن هذا الأعرابي لم يدرس بأفخم جامعات أوربا ولم يحصل على الدكتوراه أو الأستاذية؛ ولكنه أوتي عقلا سويا وقريحة صحيحة وفطرة سليمة هدته إلى معرفة الفرق بين كلام الله _تعالى_ وكلام الناس.

أما من جهة الصوت فقد "استعمل القرآن في الفواصل حروفًا ذات وقع نغمي ووضوح سمعي لتظهر للسمع حين الوقف عليها، والوقف على أواخر الآيات من سنن القراءة كما هو معلوم، ولذلك استعمل النون فاصلة في حوالي ٥١% من آياته، تلتها الميم بحوالي ١٢.٥%وهما أهم حروف الترنم في العربية، في حين لم يستعمل الخاء فاصلة قط لصعوبتها وصعوبة الوقف عليها .[٢]"

كل هذه الفروق الدلالية والصوتية ترشد من به مثقال ذرة من بصيرة أن القرآن فوق الشعر والنثر وفوق أي كلام للبشر ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٧٠﴾ (يس: ٦٩ – ٧٠)، صدق الله _تعالى_ وكذب (مرجليوث)، في مقولته التي أراد أن يتوصل بها إلى

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، (٢/ ١٨٥)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م.

(٢) الفواصل القرآنية – دراسة بلاغية، د. السيد خضر، ص ١ ورقة بحثية منشورة على شبكة المعلومات الدولية بقسم اللغة العربية –كلية المعلمين بالرياض.

إنكار الشعر الجاهلي، وهذا القول الباطل هو أنموذج للدراسة الاستشراقية للبلاغة العربية في مجال التأليف والبحث العلمي.

أما الميدان الأهم والأشد خطورة الذي تناولته الدراسات البلاغية للمستشرقين هو مجال البحث في إعجاز القرآن الكريم في بحوث:" بيان القرآن بقلم: (هـ. و. ستانتون)، (١٩١٩ م)، وسحر الآيات القرآنية بقلم: (كريستنس)، (١٩٢٠ م)، والإعجاز في القرآن بقلم: (روبسون)، صحفي جمعية جلاسجو، (١٩٢٩ م / ١٩٣٣)، حول التشبيه والتمثيل في القرآن، بحثان مستقلان للأستاذ بول، كوبنهاكن، (١٩٢٣)، كسب واكتسب ومعناهما المجازي في القرآن، بونيشي، مجلة الدراسات الشرقية (١٩٥٥ م)"[(١)].

فاحتوت هذه البحوث البلاغية وغيرها مما لم يتم ذكره على مغالطات جمة ناشئة عن عدم أهليتهم في هذا الميدان الوعر على أن يخوض غماره أمثالهم، فأقدموا على خوض هذا البحر المهيب دون تأهيل مثل الذي فعله: (ريتر) الذي أطال المقام في ديار الإسلام وفي تعلم العربية، حتى تكونت لديه الأهلية التي تمكنه من النظر في بحث البلاغة العربية، فاتسمت بحوثه بالإنصاف والموضوعية، أما السواد الأعظم من المستشرقين فاكتفوا بما درسوه عن العربية في مراكزهم وجامعاتهم، فتصدروا لكتابة مثل هذه المغالطات الفجة دون روية ودراسة، فهذا المستشرق الفرنسي لوبون يتوهم أن القرآن الكريم "قليل الارتباط، خال من الترتيب، فاقد السياق كثيرا"[(٢)]، وهذا الخطأ الفاحش لا يقع فيه أصغر من تدبر أشعار العرب وتذوق انتقال سياقات شعرهم من

(١) المستشرقون والدّراسات القرآنيّة، الدكتور محمد حسين علي الصّغير، ص ٩٤.

(٢) المصدر السابق.

غرض إلى غرض ومن مقام إلى مقام في تسلسل ومناسبة ورباط ناظم يربط بين هذه المقامات جميعا بخيوط بديعة، وهذا يعود بنا إلى الوقفة التي وقفها أبو فهر فيما قبل المنهج في بحوث المستشرقين من تأثير بيئاتهم وثقافتهم على نتاجهم، وما أفرزه ذلك من مغالطات شديدة ناتجه عن عدم فهمهم للسان العرب وطرائقهم في البيان.

وهذا المستشرق الألماني: (ثيودور نولدكه) (١٨٣٦ م . ١٩٣٠ م) "نراه يغمز أسلوب القرآن الكريم، ويشير إلى كثرة انتقال القرآن في خطاباته من صيغة إلى أخرى، ومن حال إلى حال، فمن غيبة إلى حضور إلى خطاب، ومن ظاهر إلى مضمر وبالعكس، واعتبر ذلك مجالا للتجريح"[(١)]، ومن البين لمن فهم مبادئ البلاغة أن هذا الخطأ الكبير ناشئ كذلك عن الجهل الصارخ ببلاغة اللسان العربي، وما يحتويه من بلاغة الالتفات وخروج الكلام عن مقتضى الظاهر، ومما يسترعي السامعين ويأسر ألبابهم ويثير نشاط أفهامهم، ويجعلهم في تشوف دائم إلى التماس الهداية من القرآن العظيم بأساليبه المتنوعة، وتشوق إلى التعرف على عجائبه التي لا يشبع منها العلماء، وهذا مما لا يتأتى لمستشرق غربي اعتمد على ترجمة لمعاني القرآن بها من المجافاة عن بلاغة القرآن كبعد ما بين المشرقين، فمن أين له أن يفهم نظم القرآن وأن يدرك التناسب بين مقاماته وبلاغة الخروج عن مقتضى الظاهر في آياته وسوره؟! يقول الإمام الخطابي رحمه الله: "وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر؛ لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني، وبه تنتظم أجزاء الكلام، ويلتئم بعضه ببعض فتقدم له صورة في النفس يتشكل بها البيان"[(٢)].

---

(١)المصدر نفسه، ص ١٢٤.

(٢) بيان إعجاز القرآن الكريم للإمام الخطابي(ت٣١٨)هـ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٣٦،طبعة دار المعارف الطبعة الثالثة.

وهذا الذي ذكره الإمام الخطابي لم يتوفر للمستشرقين الذين نشأوا في ثقافة غير الثقافة، ولسان غير اللسان، وهذا ما توصل إليه الشيخ محمود شاكر ــ رحمه الله ــ بعد أن عرض هذه الظاهرة بالشرح والتفصيل والتأريخ فقال: "وبين لك الآن بلا خفاء أن كتب الاستشراق ومقالاته ودراساته كلها مكتوبة أصلا للمثقف الأوربي وحده لا غير، وأنها كتبت له لهدف معين، وفي زمان معين وبأسلوب معين لا يراد به الوصول إلى الحقيقة المجردة، بل الوصول الموفق إلى حماية عقل هذا الأوربي المثقف من أن يتحرك في جهة مخالفة للجهة التي يستقبلها زحف المسيحية الشمالية على دار الإسلام في الجنوب"(١).

ومما سبق يتبين أن جهود الاستشراق في مجال البحث البلاغي تأليفا وتحليلا لم تسفر عن قيمة علمية منهجية، اللهم إلا في مجال التحقيق والفهرسة الذي يمكن أن يستعين به باحث في البلاغة عن لفظة في الحديث النبوي مثلا من خلال موسوعة المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي مثلا، أو في تحقيق كتاب من كتب البلاغة، أما نواحي إعجاز القرآن الكريم، وتذوق الشعر العربي، ومعرفة الفرق بين أصناف الكلام، وما الذي يميز متكلم عن آخر، فالبحث فيها وفي سائر بحوث البلاغة العربية شأن عربي خالص لا يستطيع أن يحسنه دارس غربي أثرت عليه بيئته وأهداف دراسته التي عبر عنها أبو فهر بقوله: (ما قبل المنهج)، فالبلاغة العربية بألفاظها ومعانيها ونظمها لا تعيها إلا أذن وقلوب عربية، مما لا يكاد يحسن فهمه الدقيق إلا العربي المحض، أو من تمرس بلغة العرب وطرائقهم في الإبانة عن المعاني والتعبير عنها بما يناسب مقتضيات أحوالها .

***

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص٦٠.

المبحث الثاني:الاستغراب وأثره على البحث البلاغي :

لمادة: (غرب) معان كثيرة تعود في معظمها إلى معنى مغيب الشمس والجهة التي يحدث فيها هذا المغيب، جاء في لسان العرب:" الغَرْبُ خِلافُ الشَّرْق، وَهُوَ المِغْرِبُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ؛ أَحدُ المِغْرِبين: أَقْصَى مَا تَنْتَهي إِليه الشمسُ فِي الصَّيْفِ، والآخَرُ: أَقْصَى مَا تَنْتَهِي إِليه فِي الشتاءِ؛ ... والغُرُوبُ: غُيوبُ الشَّمْسِ. غَرَبَتِ الشمسُ تَغْرُبُ غُروبا ومُغَيْرِبانا: غابَتْ فِي المِغْرِبِ؛ وَكَذَلِكَ غَرَبَ النجمُ ... والمِغرِبُ فِي الأَصل: مَوْضِعُ الغُروبِ ثُمَّ استُعْمِل فِي الْمَصْدَرِ وَالزَّمَانِ "[1]، وعلى هذه المعنى الأساس عند دخول الألف والسين والتاء على مصدر هذا المادة يكون معناها طلب ما عند الغرب من علوم ومعارف وفكر وثقافة، ومن هذا المعنى الأصلي السابق الذي يدل على جهة غروب الشمس تأتي مجموعة أخرى من المعاني كالبعد بأنواعه المكانية والمعنوية، جاء كذلك: "غَرَّبَ القومُ: ذَهَبُوا فِي المِغْرِبِ؛ وأَغْرَبُوا: أَتَوا الغَرْبَ؛ وتَغَرَّبَ: أَتَى مِنْ قِبَلِ الغَرْب ...والغَرْبُ: الذهابُ والتَّنَحِّي عَنِ الناسِ. وَقَدْ غَرَبَ عَنَّا يَغْرُبُ غَرْبا، وغَرَّبَ، وأَغْرَبَ، وغَرَّبه، وأَغْرَبه: نَحَّاه"[2].

ومن المعاني المستوحاه من هذه المادة كذلك كل ما كان غير مألوف في النسب والقرابة أو في معاني الألفاظ أو في الأفعال المستغربة، حيث جاء كذلك: "والغُرباءُ: الأَباعِدُ... والغَريبُ: الغامِضُ مِنَ الْكَلَامِ؛ وكَلمة غريبةٌ، وَقَدْ غَرُبَتْ، وَهُوَ مِنْ ذَلِكَ. وَفَرَسٌ غَرْبٌ: مُتَرَامٍ بِنَفْسِهِ، مُتَتابعٌ فِي حُضْره، لَا يُنْزِعُ حَتَّى يَبْعَدَ بِفَارِسِهِ، ويطلق الاستغراب على التمادي في الأفعال كالضحك في الصلاة:" واسْتَغْرَب فِي الضَّحِك،

---

(١) لسان العرب (١/ ٦٣٧) مادة: (غرب) بتصرف.

(٢) المصدر نفسه بتصرف.

واسْتُغْرِبَ: أَكْثَرَ مِنْهُ. وأَغْرَبَ: اشْتَدَّ ضَحِكُه ولَجَّ فِيهِ. واسْتَغْرَبَ عَلَيْهِ الضحكُ، كَذَلِكَ. وَفِي الْحَدِيثِ: أَنه ضَحِكَ حَتَّى استَغْرَبَ أَي بالَغَ فِيهِ. يُقال: أَغْرَبَ فِي ضَحِكه، واسْتَغْرَبَ، وكأَنه مِنَ الغَرْبِ البُعْدِ؛ وَقِيلَ: هُوَ القَهْقهة. وَفِي حَدِيثِ الْحَسَنِ: إِذا اسْتَغْرَب الرجلُ ضَحِكاً فِي الصَّلَاةِ، أَعادَ الصلاةَ"(١).

ومن جميع هذه المعاني السابقة يكون الاستغراب دالا في اللغة على طلب ما عند الغرب، أو ما عند غير العرب والمسلمين من فكر وثقافة لم تكن معهودة عند العرب والمسلمين، وهذا المفهوم المجرد لا حرج فيه ــإن كان هذا الفكر المطلوب قويما لا إشكال فيه ــ؛ لأننا مأمورون شرعا بتتبع الحكمة أيا كان صاحبها.

والاستغراب في الاصطلاح له مفهوم فكري وحضاري درسه علماء هذا المجال، فقد اهتم كثير من العلماء المعاصرين في دراسة هذه الظاهرة فكريا ونفسيا وحضاريا، وممن تبحر في دراستها الدكتور عبد الله الشارف، فبعد دراسته لها في مجموعة من البحوث والمقالات توصل إلى تعريف هذا المصطلح " بأنه ظاهرة نفسية واجتماعية وثقافية معاصرة، يتميز الأفراد الذين يجسدونها بالميل نحو الغرب والتعلق به ومحاكاته، نشأت في المجتمعات غير الغربية – سواء أكانت إسلامية أم لا – على إثر الصدمة الحضارية التي أصابتها قبيل الاستعمار وخلاله"(٢)، هذا التعريف أكده تعريفات كثيرة من العلماء الذين بحثوا هذه الظاهرة الفكرية التي أكدت" أنه اتجاه ثقافي يحاول تقليد

---

(١) المصدر السابق بتصرف.

(٢) ينظر: الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر منشورات كلية الآداب تطوان، ٢٠٠٣م. وكذلك: الاستغراب في التربية والتعليم بالمغرب. طنجة: منشورات كلية الآداب تطوان، ٢٠٠٠م، بالإضافة إلى موقع الدكتور عبد الله الشارف على الإنترنت.

الحضارة الغربية، والسعي لتطبيقها في كافة مراحلها، مع الاعتقاد بأن لها وحدها حق البقاء والاستمرار"[١].

ونعود إلى التنويه الذي صدرت به مقدمة هذا البحث وهي أن تبادل العلوم والمعارف بين الشعوب والحضارات أمر محمود لا حرج فيه، لكن موضع الخلاف هاهنا هو دراسة البلاغة من خلال هذا الفكر الغربي المختلف تماما مع طبيعة العرب وأصالة لغتهم وتميز فكرهم، أضف إلى ذلك الأخطاء الفادحة عند هذا النقل، فبعض من قاموا بهذا النقل كانوا كحاطب ليل! ينقل للثقافة العربية ما ليس مناسبا لها بكل جرأة وسهولة، يقول الشيخ محمود شاكر: "ومعنى ذلك باختصار أنه صار الآن ممكنا أن يصبح من الممكن ومن السهل اليسير أن يكون معنى الجديد والتجديد في دراسة آداب أمة ما وفي دراسة تاريخها أن يعمد المجدد إلى اقتباس آراء وأفكار قد تولى صياغتها من هو لصيق دخيل عليها وعلى لسانها لم ينشأ فيه وإنما تعلمه على كبر فهو لا يعلم منه إلا أقل القليل"[٢]، وبالتالي فمكمن الخطأ في الاستغراب هو نفس ما انتقد على الاستشراق، من عدم التأهل اللازم وعدم مراعاة خصوصيات البلاغة العربية، فلكل بلاغة ثقافتها، ولكل وجهة هو موليها.

ومن هاهنا يأتي هذا التساؤل المشروع: هل يصح في دراسة العلوم هذا الميل والتعلق والمحاكاة؟، والجواب واضح أن هذا الميل والتعلق والمحاكاة هو خلل واضح فيما قبل المنهج بالنسبة لهذا الباحث الذي هزم نفسيا أمام هذا الفكر الآخر الذي أسره هواه حتى وقع في أخطاء جمة هو موضوع هذا المبحث إن شاء الله.

---

(١) الاستشراق والاستعمار الفكري، علي عبد العظيم صابر، ص٤٣، مكتبة توفيق بالقاهرة ٢٠٠٥م.

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ١٥٧.

فقد كان المرجو من الباحثين المستغربين أن تكون دراساتهم البلاغية مناصرة للبلاغة العربية ومدافعة عنها؛ لأن أهل الاستشراق _وهي الظاهرة المقابلة_ كان منزعهم هو نصرة ثقافتهم وإحياؤها وتدعيمها، ولكن البلاغة العربية فوجئت بسيل من الاتهامات التي طعنت فيها من أرباب الاستغراب في الدرس البلاغي، دون منهجية علمية، ودون دراسة متعمقة لتراث أهل هذا العلم، فظهر هذا الأثر السلبي الفادح للاستغراب في الدرس البلاغي، وهو التسرع في اتهام البلاغة العربية بما ليس فيها من العيوب والمثالب، حيث شاعت في دراسات المستغربين البلاغية الاتهامات الباطلة الموجهة للبلاغة والتي تكررت كثيرا عندهم حتى صارت كالعلكة تمضغ دون فائدة، كاتهامهم للبلاغة بمحدودية نظرها وقصوره على الجملة، وعدم النظرة الكلية للنص، وعدم صلة البلاغة بغيرها من العلوم، ومحدودية مجالات البحث في البلاغة، وأن اشتغالها بإعجاز القرآن الكريم أفسدها، وأنها تعالت على الإنتاج الأدبي، وأنها كانت عائقا أمام تقدم الأمة، إلى غير ذلك من التهم الباطلة والافتراءات الخطيرة، وهذه بعض الشواهد على ذلك:

الشيخ أمين الخولي، وكتاب فن القول.

كان للشيخ أمين الخولي[1] _رحمه الله_ فكر وقاد وعقل ذكي ساعده على التعمق في الثقافة الغربية ودراسة آدابها وبلاغتها، ولما طلب من الشيخ _رحمه الله_

(١) "أَمِين الخولي (١٣١٣ - ١٣٨٥ هـ = ١٨٩٥ - ١٩٦٦ م): من أعضاء المجمع اللغوي بمصر. ولد في قرية شوشاي بالمنوفية وتعلم بالأزهر تخرج بمدرسة القضاء الشرعي، وعين مستشارا للشؤون الدينية في السفارة المصرية برومة فأحدث أزمة حملت حكومة إيطاليا على طلب نقله، فنقل إلى برلين، وأثار أزمة أخرى، فدعته حكومته إلى مصر. وعين أستاذا في الجامعة المصرية (القديمة) ثم كان وكيلا لكلية الآداب إلى سنة ١٩٥٣ فمديرا للثقافة العامة

تدريس فكر أدبي جديد في الجامعة المصرية ومعهد المعلمين، توجه نحو صياغة جديدة للبلاغة أسماها بفن القول، ولكن هذه الصياغة كان بها من العجلة والتسرع ما بها، حيث لم يقف الشيخ أمين أولا على معالم البلاغة الرئيسة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني ـرحمه اللهـ ومن حذا حذوه، بل اقتصرت نظرته على كتب المتأخرين ـرحمهم اللهـ كما سيأتي، فأدى ذلك إلى الوقوع في العديد من الأخطاء المنهجية والأخطر من ذلك أن المقارنات التي عقدها الشيخ في كتابه: فن القول تضمنت اتهامات شديدة الخطورة للبلاغة العربية، وقد اعتبر شيخ البلاغيين الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى ـحفظه اللهـ أن بداية ظهور الاتهامات للدراسة البلاغية كانت عند الشيخ الخولي ـرحمه اللهـ، يقول الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى عن الانتقادات التي وجهها الشيخ الخولي للدراسة البلاغية:" ولا أعرف أحدا ذكره قبله، لا من القدماء ولا من المحدثين، ثم رأيت هذا الكلام يطل علينا مرة أخرى من كتب كان يجب أن تراجع قبل أن تردد"[1]، وبالتالي فإن هذه الانتقادات التي وجهت للبحث البلاغي وتكررت

بوزارة التربية والتعليم إلى سنة ١٩٥٥ وبها أحيل إلى المعاش ومثل مصر في عدة مؤتمرات. وتوفي بالقاهرة، له (البلاغة العربية – ط) محاضرة، و (كناش في الفلسفة – ط) الأول منه، و (فن القول – ط) و (مالك بن أنس – ط) ثلاثة أجزاء، و (المجد دون في الإسلام – ط) الأول منه، آخر كتبه، و (الأزهر في القرن العشرين – ط) رسالة، و (الأدب المصري – ط) و (الجندية في الإسلام – ط) و (من هدي الرسول – ط) و (مشكلات حياتنا اللغوية – ط)"، الأعلام للزركلي (٢/ ١٦)، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢م.

(١) خصائص التراكيب، أ.د/ محمد أبو موسى، من مقدمة الطبعة السادسة، ص (ك)، ط مكتبة وهبة، الطبعة السابعة ١٤٢٧هـ.

كثيرا ورددها المستغربون في مؤلفاتهم ومقالاتهم وبحوثهم، ولا تزال تردد حتى يومنا هذا، هي في الأساس كانت عبارة عن نظرات متعجلة للشيخ الخولي ـرحمه اللهـ رددها من جاء بعده، وصارت عندهم كالمسلمات، وربما لم يكن يتوقع ـرحمه اللهـ أن هذه النظرات سيساء استغلالها بشكل فج وصل فيما بعد للدعوة لهدم البلاغة من جذورها!.

وقد رجع الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى ـحفظه اللهـ هذا الانتقاد الذي وجهه الشيخ الخولي للبلاغة العربية إلى محدودية دراسة البلاغة عند الشيخ الخولي فقال:" والذي أغرى الشيخ أمين بهذا هو أنه اعتمد في درسه للبلاغة على شروح التلخيص ـكما قال هوـ، وحقل الدراسة البلاغية ومادتها أوسع مما كتب في شروح التلخيص"(١).

واقتصار النظر في البلاغة على شروح التلخيص أدى بالشيخ الخولي إلى قوله ـرحمه اللهـ: "وهنا أشير إلى صعوبة سنواجهها في هذه الكتب القديمة والاتصال بها اتصالا يقدرنا على فهمها ذلك الفهم الجريء القوي...ولكننا نريد أن نشير إلى واقع لا ينكر، وهو أن هذه الكتب عميت بها السبل إلى المعاني، واستبهم المراد، وأصبحت تحتاج إلى درس خاص بها"(٢)، إلى آخر ما ذكره الشيخ الخولي عن هذه الصعوبات التي لو سلمنا بها فإنه لا يصح بحال من الأحوال أن تكون صعوبة دراسة بعض كتب علم من العلوم ذريعة للهجوم على هذا العلم والانتقاص من قيمته، والبلاغة العربية علم أصيل له أصوله العذبة وموارده المتنوعة، وشروح التلخيص ما هي إلا فرع من فروع

(١) المصدر السابق.

(٢) فن القول، للشيخ أمين الخولي، ص ٧٢ ، مطبعة دار الكتب المصرية،١٩٩٦م.

أصله العذب، كتبها علماء أجلاء بلغة كتابة العلم في زمانهم، فلو راجعت مؤلفات باقي العلوم في هذا العصر ستجد أنها كتبت بهذا الأسلوب وهذه الطريقة، ومع ذلك ففي هذه الكتب الجليلة من الفوائد والكنوز والأسرار الكثير والكثير، ولو سلمنا ببعض المآخذ التي يمكن أن تؤخذ على شروح التلخيص، فليس من الإنصاف مطلقا أن يحاكم الأصل ــوهو البلاغة العربيةــ ببعض المآخذ على بعض مؤلفاتخ ــوهي كتب شروح التلخيصــ.

والشيخ الخولي ــرحمه اللهــ حينما أراد أن يعالج هذه المآخذ التي أخذها على شروح التلخيص جعل الاستغراب هو وجهته وكأنه هو الترياق الذي يصلح ما أفسده الدهر في البلاغة العربية.

فبعد مقدمات كثيرة في كتاب فن القول تاريخية واجتماعية ولغوية جاءت رؤيته ــرحمه اللهــ في إصلاح البلاغة في الكتاب السادس من فن القول فقال في مطلعه:" أردت لأقيم الرأي في البلاغة وإصلاحها على أساس من الواقع المجرب المنتفع بخبرة من حولنا من الأمم المستفيد من التقدم الإنساني والرقي الاجتماعي، من أجل ذلك قدمت ما سلف من مقارنات لصورة البلاغة ودائرة بحثها ومنهج درسها وغاية هذا الدرس عند الأقدمين على ما اشتهر عندهم وغلب في تناولهم من صنع مدرسة المتكلمين فيهم، وعند المحدثين من أمم الغرب في جملة أمرهم ولباب رأيهم"[1]؛ إذن الشيخ الخولي ــرحمه اللهــ عندما أراد أن يصلح من شأن البلاغة من وجهة نظره قصر رؤيته للبلاغة العربية على مدرسة المتأخرين، وجعلها طرفا في مقارنة مع الفكر الغربي في عصره الحديث، فهي مقارنة لم تتفق في وجه من الوجوه، وافتقدت للمعايير المنهجية السليمة.

---

(١) السابق ٢٣٢.

ثم يبين ـرحمه اللهـ السبب الذي دعاه إلى ما اعتبره تجديدا للبلاغة من خلال الفكر الأوربي الغربي فقال : " والحضارة الغربية اليوم ـفي أصولهاـ موحدة الأسس متشابكة المسالك يجد الجديد في الأمة منها فيمسي عند صواحبتها؛ ولذلك اطمأننت إلى أن ما أحلت عليه من نظرات بعض أممها ...وهو ما يسعني أن أدعوه فيما مضى من تلك المقارنات ما عند المحدثين أو ما عند الغربيين"(١)، وهذه الفقرة الثانية تكشف بجلاء إعجاب الشيخ ـرحمه اللهـ بالفكر والثقافة الغربية، وهذا الاستغراب الواضح أثر بصورة كبيرة على المقارنة التي أوردها في فن القول في عمودين متقابلين الأيمن منهما للبلاغة العربية القديمة بسلبياتها ومساوئها ـعلى حسب نظرهـ والعمود الأيسر للبلاغة الجديدة المستوردة بمحاسنها الجمة وفوائدها البديعة، وفقا لهذه النتائج التي لم يوفق فيها، حيث أدت إليها مقدمات غير صحيحة، فاتهمت هذه النتائج البلاغة العربية بالتعقيد وضيق الأفق وقصور النظر، في حين أنها وصفت الأفكار المستوردة من الغرب بأنها: "الأحسن والأجمل، وصاحبة النظرة الكلية الشاملة الأنضر وجها والأبهى قسمات، والتي تعبر عن الإحساس بالجمال"(٢).

ومن ثم كانت رؤية الشيخ الخولي لإصلاح البلاغة للتخلية ثم التحلية، والتخلية تشمل التخلص من العيوب التي وصف بها :(البلاغة القديمة)، وفي التحلية طالب بإضافة أمور اتهم البلاغة بأنها خلت منها.

ومجال هذا البحث هو الاستشهاد بشيوع هذه الاتهامات الموجهة للبلاغة كأثر سلبي للاستغراب في البحث البلاغي، أما ذكر هذه الاتهامات تفصيلا والرد عليها فهو

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) ينظر جدول المقارنة فن القول ص ٢٢٦ وما بعدها.

ميدان آخر، والذي يعني هذا البحث هو عرض الرؤية العامة للبحث البلاغي عند الشيخ الخولي ورؤيته في التخلية والتحلية لتجديد البلاغة.

حيث طالب الشيخ في التخلية بأن تعاد قسمة علوم البلاغة وتكون ثنائية بدلا من القسمة الثلاثية المعهودة، وذلك باعتبار البديع علما تابعا لا مستقلا بذاته، وقد تصدت مجموعة مباركة من البحوث والدراسات لهذه القضية وبينت قيمة البديع وأنه ليس مجرد تحسين الكلام المطابق لمقتضى الحال، بل له دور أساس في المطابقة والبيان.

وطالب مثلا في التحلية بعدم اقتصار البحث البلاغي على الجملة[1]، وهذا اتهام شاع مؤخرا وانتشر كثيرا ورددته كثير من الأقلام التي تلت الشيخ الخولي دون أن تنظر ولو نظرة سريعة للبلاغة العربية التي أحد أهم أبوابها هو باب الفصل والوصل الذي يبحث في علاقات الجمل التي لا محل لها من الإعراب من العطف بالواو وتركه، وكذلك مباحث العلاقات والمناسبات لا سيما في القرآن الكريم بين الآيات والسور والمطالع والمقاصد والمعاقد والمناسبات، وكذلك أبواب المناسبات العديدة في الشعر والنثر، وهذه الشبهة تصدت لها العديد من البحوث وبينت زيفها وعدم صحتها، ومما سبق يتبين أنه قد شاعت الاتهامات الموجهة للبلاغة العربية في هذا الكتاب الذي فتح هذا الباب على مصراعيه وكان إماما للدراسات الاستغرابية في البلاغة التي جاءت بعده.

***

(١) ينظر فن القول: ٢٣٩.

الدكتور/ صلاح فضل، وكتاب بلاغة الخطاب وعلم النص.

الأستاذ الدكتور صلاح فضل ناقد كبير متخصص في فنون الأدب والنقد واللغة، حصل على الدكتوراه من جامعة مدريد بإسبانيا، ودرَّس في الجامعات والمعاهد المصرية، وله دراسات جمة في ميدان الأدب والنقد والبلاغة، ومن أبرز الدراسات الاستغرابية التي تجلت فيها الاتهامات الموجهة للبلاغة العربية كتاب بلاغة الخطاب وعلم النص للدكتور صلاح فضل، وهذه الدراسة نموذج واضح للتأثر بظاهرة الاستغراب، واعتبار أن الفكر الغربي هو المخرج الوحيد للتنوير بصفة عامة ولدراسة البلاغة بصفة خاصة.

وفكرة الكتاب قائمة على التحرر الكامل من المعايير والقواعد التي تقيم النصوص الأدبية وتضع معايير حسنها وجودتها، بحيث يقتصر دور البلاغة على رصد وتوصيف أسلوب الكاتب دون مرجع لأي قواعد أو أسس سابقة سواء في تراث البلاغة العربية أو في غيره، وهاهنا أول مفارقة للفكرة الرئيسة في الكتاب مع عنوانه؛ لأن العنوان به ذكر للعلم، والعلم لا بد أن تكون له حدوده وقواعده التي تضبط إطاره العام، وإلا سيصبح علم البلاغة وغيره من العلوم مجموعة من الخواطر والانطباعات الشخصية التي تختلف من ناقد لآخر حسب الأهواء والظنون، وليس حسب الأصول والقواعد، وهنا سيطغى (ما قبل المنهج) على المنهج ذاته، بل لا يوجد هاهنا منهج أصلا، وإنما خواطر متفرقة لناقد فرنسي أو لغوي ألماني أو أديب إنجليزي.

هذا التحرر الكامل الذي بنيت عليه أفكار الكتاب أدى لسيل من الاتهامات للبلاغة العربية ووصفها بأوصاف مثل :(البلاغة القديمة)و(المعقدة)و(الجامدة)و(قاصرة النظر)(البعيدة عن إدراك الجمال والبحث عنه)،والتي (لا نظر لها لحضارة الأمة أو تقدمها)، وفيما يلي إشارة لبعض هذه الاتهامات.

باكورة الاتهامات في هذا الكتاب هو اتهام البلاغة بأنها منعزلة عن النتاج الأدبي، يقول الدكتور صلاح فضل تحت عنوان :من القاعدة إلى الظاهرة:"كانت هناك سمة عامة تلمسها في جميع الكتب البلاغية في الشرق والغرب ناجمة عن طابعها المعياري المطلق الذي يحدد القواعد المنطقية بالمفهوم الصوري الأرسطي، ويعنى بالتعريفات والتصنيفات العقلية، وهي تعاليها الظاهر عن حركية الإنتاج الأدبي في واقعه التاريخي المحدد"[(١)]، ويلاحظ هاهنا عموم هذا الحكم على كل الدراسات البلاغية وكل كتب البلاغة، وهذا العموم المطلق يجانب الصواب ويجافي المنهج العلمي السديد، وإلا فأين هذا العموم من الموازنات الماتعة في أسرار البلاغة، ومن الشواهد العديدة التي يذكرها الإمام عبد القاهر وغيره من الأئمة بعد ذكر القواعد بصورة مقتضبة، ويكفي للرد على هذا الاتهام قاعدة واحدة في باب التقديم والتأخير للإمام عبد القاهر، وهو تقديم المسند إليه على خبره المثبت، حيث قرر ــرحمه اللهــ القاعدة في سطور موجزة ثم استشهد لها بثلاث عشرة آية كريمة، وثمانية أبيات من روائع الشعر العربي، ومجموعة أخرى من الأمثلة وحلل كل هذه الشواهد قرآنية كانت أو شعرية في رحلة ماتعة في الدلائل؛ لبيان القاعدة التي قررها في خمسة سطور فقط، ثم عاش معها في أحدى عشرة صفحة من التحليل والإبحار في بلاغة هذه النصوص، فكيف تكون البلاغة العربية منعزلة عن الإنتاج الأدبي إذن؟!، وكيف نسلم للدكتور صلاح فضل هذا الاتهام في قوله: "حتى إنه ليمكن القول بأن هذا الانفصام يعد السمة المميزة للبلاغة التقليدية"[(٢)]، والأعجب من ذلك أن الدكتور فضل خص الإمام عبد القاهر بهذا

---

(١) بلاغة الخطاب وعلم النص، د/صلاح فضل، ص١٠٩، ط: عالم المعرفة، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت ١٩٩٢م.

(٢) ينظر السابق، ١٠٩، ١١٠.

الاتهام فقال: "ولو قمنا بتجميع القطع المبعثرة التي يمكن أن تكون أساسا لنظريات التعبير في التراث البلاغي العربي مثلا واعتمدنا على أكثر المؤلفين تماسكا في منظورهم مثل عبد القاهر الجرجاني في نظريته عن النظم سنجدها مفارقة بشكل واضح للإنتاج الأدبي المحدد"(١).

وهذا أمر في غاية العجب، وكأن الدكتور فضل يتناسى أن الدلائل كلها بيان لنظرية النظم، أو كأنه قرأ كتبا أخرى غير دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، هذان الكتابان الجليلان اللذان ذخرا ببديع شواهد العربية قرآنا وسنة، وشعرا ونثرا، ففي الدلائل نحو من ستمائة بيت من الشعر، وفي الأسرار نحو من خمسمائة، بالإضافة إلى الأمثال السائرة والنصوص النثرية الرائعة، في حين أن كتاب بلاغة الخطاب وعلم النص يقع في ثلاثمائة وخمس وأربعين صفحة وليس فيه إلا ستة وعشرون بيتا من الشعر لم يقم المؤلف بتحليل بيت واحد منها بأي طريقة كانت، وقارئ البحث أمامه الأرقام ليتعرف على نوع الدراسة التي انعزلت عن الإنتاج الأدبي وتعالت عليها تكبرا وأصبح السمة البارزة فيها.

ولم تتوقف الاتهامات الموجهة للبلاغة العربية في هذا الفكر الاستغرابي إلى هذا الحد، بل وصلت إلى اتهام البلاغة العربية بأنها فارغة من المحتوى الإنساني لمنظومة القيم الرفيعة!!، يقول الدكتور فضل: "والخطأ الذي تسعى البلاغة إلى تفاديه هو الخطأ العقلي المنطقي؛ ولهذا فإن السكاكي يجعل المنطق والاستدلال لاحقا عليها ولا شأن لها بأنواع الخطأ الأخلاقي أو القصور الجمالي ...وهذه هي براعة الجدل الصوري الفارغ

---

(١) المصدر نفسه

من المحتوى الإنساني لمنظومة القيم الرفيعة "[١]، وسبحان الله، فكيف يكون علم أسس على التقوى من أول يوم لخدمة كتاب الله _تعالى_ ولبيان إعجازه وبلاغته، كيف يكون خاليا من منظومة القيم الرفيعة، وإذا تأملنا جل شواهد علمائنا التي آثروا الاستشهاد بها في كتبهم سنجد أنها تحض على النجدة والمروءة والكرم وإغاثة الملهوف ونصرة الضعيف، أليست هذه المعاني الجليلة من منظومة القيم الرفيعة؟!، أم إن أرباب مذهب الفن للفن الذي يعتنقه كثير من المستغربين هم سدنة هذه القيم المزعومة؟، وقد وقفت على كثير من النصوص والأفكار عند بعض الأسماء الرنانة في التوجه الاستغرابي، وآثرت عدم الإشارة إلى هذه النصوص، حيث إنه يعف القلم عن ذكرها من دراسات كاملة تقوم على دراسة نصوص تشيع بالخيانة والشذوذ والعقوق والكبائر وما يندى له جبين المروءة والعفة، ثم بعد ذلك يأتي هذا الاتهام مما يذكر بالمثل الشهير : (رمتني بدائها وانسلت).

"وينبغي أن يضاف إلى ذلك أن البلاغة تنظر إلى طريقة الإبانة عن المعاني وما فيها من خبايا ولطائف، بصرف النظر عن المعاني والمضامين نفسها، فالشاعر المجيد من يحسن الإبانة عن المعاني وإن كانت في وصف الخمر، وقد تحدى القرآن الكريم العرب أن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن مفتريات أي في أي معنى وإن كان في وصف الخمر، وليس في المعاني التي هي كالإيمان بالغيب والتشريع "[٢].

ويتواصل مسلسل الاتهامات في هذا النموذج الذي آثرت دراسة كل ما فيه من اتهامات للبلاغة حتى تكون هذه الدراسة شاهدة ومبينة لمصدر الخطورة في هذا الفكر،

---

(١) بلاغة الخطاب وعلم النص، ص١٢٠.

(٢) من تعليقات ا.د/سلامة داود محكم البحث.

والاتهام العجيب هذه المرة بأن البلاغة العربية تقف عائقا أمام التقدم والحضارة والرقي!!!، حيث ورد في كتاب بلاغة الخطاب وعلم النص ما نصه:" إن هذا الإدراك الواضح المنظم للجهد البلاغي الحديث لا ينبغي أن يختلط بالرغبة الوهمية في إحياء البلاغة القديمة، فلم يعد هذا ممكنا في ظل معطيات التطور العلمي والحضاري، وكلما عمدنا إلى البناء في الفضاء القديم اندثرت ملامحها السابقة، فالمكان لا يتسع لهذين النمطين المتخالفين معماريا"[(١)]، وهذا الاتهام الظالم للبلاغة العربية التي يطلقون عليها هذا الوصف: (البلاغة القديمة)، وكأنه سبة، والذي دعاهم إلى الحكم عليها بأنها سبب تخلف الأمة، دعا كاتب هذا الكتاب أن يقوم بكل صراحة ووضوح، ودون أدنى فرصة لتأويل كلامه بشتى أنواع المعاذير، أن يدعو دعوة واضحة إلى هدم البلاغة العربية تماما وإحلال الأفكار الغربية المستوردة والمترجمة بدلا منها، وعدم محاولة إحيائها بأي حال من الأحوال، وهذه هي النتيجة الحتمية لهذه الاتهامات سواء كانت جديدة عند هذا الناقد الكبير أو مكررة عند عامة المستغربين، والتي لا مبرر لها إلا الانهزام الفكري أمام الغرب أدبيا وحضاريا، ولله در شاعر النيل إذ يقول عن لغة الضاد:

أَيُطرِبُكُم مِن جَانِبِ الغَربِ نَاعِبٌ*** يُنَادِي بِوَأدِي فِي رَبِيعِ حَيَاتِي[(٢)].

وبمناقشة الفكر البلاغي لهذين العلمين البارزين في ميدان الاستغراب: الشيخ أمين الخولي وهو من أوائل الدعاة للاستغراب في الدرس البلاغي، والدكتور صلاح فضل، وهو من أبرزهم وأعمقهم طرحا، تبين هذا القدر الكبير من الاتهامات التي وجهت للدرس البلاغي وتبين عدم صحة أساسها ومنهجيتها، والاتهامات كثيرة جدا،

---

(١) بلاغة الخطاب، ١٢٥.

(٢) ديوان حافظ ابراهيم ت:أ/أحمد أمين ،أ/أحمد الزين ،أ/ابراهيم الإبياري ،١/٢٥٤،ط دار العودة –بيروت–لبنان –(د.ت).

وكذلك رواد الفكر والمتأثرين به أكثر، وليس المقصود هاهنا هو إحصاء هذه الاتهامات والرد عليها واحدة واحدة، فقد تكفلت مجموعة من البحوث والرسائل الطيبة بهذه المهمة الكبيرة، وتناولها شيخ البلاغيين الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى ـحفظه اللهـ في مقدمات كتبه مناقشة وتحليلا وردا ساطعا مبددا لهذه الشبهات، ولكن كان المقصود في هذا المبحث هو وضع هذه الظاهرة، ظاهرة الاستغراب في مقابلة ظاهرة الاستشراق وجها لوجه، حتى نصل جميعا إلى هذه النتيجة أن الاستشراق والاستغراب هما وجهان لعملة واحدة، بهما بعض الفوائد وكثير من السلبيات والمخاطر، ويجب عند الارتقاء بشأن بلاغتنا العربية أن نحذر من هذه السلبيات وتلك المخاطر .

***

المبحث الثالث: لماذا فشل الاستشراق والاستغراب في النهوض بالدرس البلاغي؟.

في المبحثين السابقين اتضح أن كلا من الاستشراق والاستغراب قد فشلا فشلًا كبيرا في النهوض بالدرس البلاغي، بل شاعت في دراساتهم الاتهامات الباطلة للبلاغة والافتراء عليها والدعوة لهدمها وعدم محاولة إحيائها، واتسمت هذه الدراسات بالقراءة السطحية لبعض مؤلفات البلاغة لاسيما المتأخرة منها، وكانت دعوات التجديد هي الستار الذي اختبأت وراءه لإبراز هذه الأفكار وعرضها في ساحة البلاغة العربية، ومع ذلك لم تنجح في تقديم الإضافات التي ادعتها، فلا هي حافظت على الأصول ونفضت عنها الغبار وأبرزت محاسنها، ولا نجحت في عملية الاستيراد الفكري الذي حاولت القيام به ونتج عنها تشوهات فكرية مترجمة عن طريق النسخ واللصق ومنشورات كثيرة لم تتجاوز الأرفف التي وضعت عليها، مما يثير هذا التساؤل المشروع وهو: لماذا فشل الاستشراق والاستغراب في النهوض بالدرس البلاغي؟، وهذا ما يحاول أن يجيب عنه هذا المبحث إن شاء الله في النقاط التي تتعلق بخصوصية اللغة العربية، والتي تحتم على من يريد النهوض بها أن يعود إلى تراثها الأصيل وأن يبرز ما فيه من درر يتألق بها الدرس البلاغي، ويحقق من خلالها الهدف المرجو منه.

فقد كان من أعظم الأسباب التي أوقعت هاتين الظاهرتين في سلبيات لا تحصى هو عدم مراعاة خصوصية اللغة العربية عند الحديث عن تطوير البلاغة العربية بأفكار الغربيين ومناهجهم، هذه الخصوصية التي أحرجت المستشرقين والمستغربين، ووضعتهم في مأزق كبير، فصار من يجدد البلاغة العربية بفكر لغة أخرى كمن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، كيف لا، واللغة العربية "أَفْصَحُ اللُّغَاتِ وَأَبْيَنُهَا وَأَوْسَعُهَا وَأَكْثَرُهَا

تَأْدِيَةً لِلْمَعَانِي الَّتِي تَقُومُ بِالنُّفُوسِ، فَلِهَذَا أُنْزِلَ أَشْرَفُ الْكُتُبِ بِأَشْرَفِ اللُّغَاتِ "[١]، ومن مظاهر هذه الخصوصية التي لم يقم الاستشراق والاستغراب بمراعاتها ما يلي:

أولا: تعلق البلاغة العربية بإعجاز القرآن الكريم.

إن بلاغة اللغة العربية لا تنفك بحال من الأحوال عن إعجاز القرآن الكريم، فاللغة العربية هي لغة القرآن، منه اكتسبت قدسيتها، وبإعجازه تشرفت بلاغتها، وعلماء البلاغة الأوائل إنما قاموا بتأسيس هذا العلم الجليل خدمة لكتاب الله _تعالى_ وقياما بحق هذه المعجزة الخالدة إلى قيام الساعة، وتغافل المستشرقين والمستغربين عن هذه الحقيقة أوقعهم فيما وصلوا إليه من افتراءات وتشويه للبلاغة العربية، يقول الشيخ محمود شاكر _رحمه الله_: "ونفثة مصدور أختم بها هذا التاريخ، أن طائفة من متهوري أهل زماننا، وهو زمن التهور والثرثرة، قد أوغلوا إيغالا شنيعا يلحق بالعبث في التهوين من شأن النحو الذي يبني عليه عبد القاهر نظره في الكشف عن إبهام البلاغة"[٢]، فالافتراء الذي طال البلاغة العربية نال أيضا سائر فروع العربية، ولكن اشتدت الخطورة في الدرس البلاغي لتعلقه المباشر والأصيل بإعجاز القرآن الكريم، فيقول _رحمه الله_:" ثم لا يدري هؤلاء الطاعنون من جهلة زماننا، أنهم بجهلهم يقتلون البيان في أنفسهم وفي أنفس البشر من بني جلدتهم، والبيان هو النعمة التي من الله بها على الإنسان؛ ليخرجه من حيز البهائم والعجماوات، فهم أحرى أن يدركوا أنهم بجهلهم وتهورهم يقتلون لغة يسر الله نزول القرآن بلسان أهلها وهم نحن العرب،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)،(٤ : ٣١٣)، ط: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون — بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ

(٢) مداخل إعجاز القرآن الكريم، أبو فهر محمود محمد شاكر ،١١٨، ط مطبعة المدني ٢٠٠٢م.

والله سبحانه يقول لنا في كتابه العزيز: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾(الأنبياء: ١٠)"[١]، وهذا مكمن الخطر الأعظم من الآثار السلبية لهذه الظواهر المستحدثة.

ومن أعجب الاتهامات التي وجهت للبلاغة اتهامها بأنها فسدت لما داخلت موضوع إعجاز القرآن الكريم؛ والسر وراء هذا الاتهام العجيب أن هذه القضية العظيمة تقف عائقا أمام استيراد علم ينفك عن قضية إعجاز القرآن الكريم وفي ذات الوقت يبحث في جمال النصوص أو فنون القول أو ما إلى ذلك، وإلا فما الذي سيقدمه هذا العلم المستورد في هذه القضية العظيمة قضية إعجاز القرآن الكريم، يقول أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى _حفظه الله_: "والقول بأن البلاغة فسدت لما داخلت موضوع الإعجاز كان من أعجب ما قرأت؛ لأننا لو تصورنا وجود بلاغة بعيدة عن الإعجاز، وهي عندنا بلاغة صالحة، ثم لما داخلت الإعجاز فسدت نكون قد تصورنا وهما محضا؛ لأن البلاغة لم تولد إلا تحت هذا العنوان:(دلائل الإعجاز)الذي كتبه عبد القاهر، وهو المؤسس لهذا العلم"[٢]، والعذر الوحيد الذي اعتذر به الدكتور أبو موسى لمن قال هذه الشبهة هو أنه لم يقرأ الدرر التي جاءت في كتابات الأئمة الخطابي والباقلاني والرماني عليهم رحمة الله ، وإنما من قال هذا الكلام نظر إلى بحوث القاضي عبد الجبار في كتابه المغني عن الإعجاز حيث أغرق هذه البحوث في بحار علم الكلام، وقد جاءت هذه البحوث قبل الإمام عبد القاهر بأكثر من خمسين سنة[٣].

---

(١) السابق، ١١٩.

(٢) مقدمة خصائص التراكيب ،ص : (م:١٣).

(٣) ينظر:السابق ، (ن:١٤).

ثانيا: التباين الكبير بين اللغة العربية واللغات الأوربية.

إن من أهم الأسباب التي أدت لفشل دراسة البلاغة العربية من خلال فكر اللغات الأوربية أن اللغة العربية تتميز عن هذه اللغات تميزا واضحا في أصولها ومبانيها، ويتضح هذا التمايز الكبير عند عرض الدراسات المقارنة بين اللغة العربية وهذه اللغات، ففي بحث بعنوان: منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة دراسة تقابلية للأستاذ الدكتور/عبد المجيد الطيب عمر أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة أم القرى عقد الباحث دراسة لغوية تقابلية بين اللغة العربية واللغة الإنجليزية، وقدم الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى لهذه الدراسة وأثنى عليها واعتبرها انتصارا للعربية وبلاغتها بعد كل محاولات النيل منها، حيث قام الباحث بهذه الدراسة بعد إتقان وتعمق في اللغات الأوربية وفي اللغة الإنجليزية بصفة خاصة.

حيث قرر الباحث أولا تميز اللغة العربية في أصلها السامي الذي حافظت عليه فيقول: "باتفاق كثير من المؤرخين فإن اللغة العربية هي الأقرب للغة السامية الأم التي انبثقت منها اللغات السامية الأخرى؛ وذلك لاعتصامها بالصحراء في جزيرة العرب، فلم تتعرض لما تعرضت له باقي اللغات السامية من اختلاط وتبدل وتحور وموت، فقد وصلت العربية إلى العهد الحاضر عبر تاريخ طويل معبر عن تراث عريق، تنطق على ألسنة الحاضرين كما كانت تنطق على ألسنة الغابرين، دون أن تستغرب أو تستعجم، فأصواتها وصيغها هي هي كما كانت لم يصبها التغيير رغم تطاول العهود وتتابع الأجيال، وهذا أمر نادر الحدوث لم يسجله التاريخ إلا للغة العربية"[(١)]، وهنا يرجع

(١) منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة دراسة تقابلية، أ.د/ عبد المجيد الطيب عمر، ص ١٠٢، ط مركز البحث العلمي وإحياء التراث، الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، الطبعة الثانية ١٤٣٧هـ.

الدكتور الطيب سبب احتفاظ اللغة العربية بأصالتها للبيئة العربية التي اقتصرت على العرب الخلص، واعتصمت بها من المختلطين والغزاة الأعاجم، وذكر الباحث في مقابل هذه الأصالة قدرا هائلا من التغيير والتبديل للغة الإنجليزية كلما احتل جزيرتهم شعب من الشعوب أو رحل إليها شعب آخر، حتى انسلخت الإنجليزية تماما من جل أصولها وأصبحت خليطا ممزوجا من باقي اللغات اللاتينية، يقول الباحث: "فالمتأمل لهذه الأحداث والتي شكلت اللغة الإنجليزية الحديثة يجد نفسه أمام فوضى لغوية يصعب معها تحديد معالم هذه اللغة ... وما يزيد الرائي إلا حيرة مع حيرته"(١).

ومن أهم مظاهر تميز اللغة العربية تميزها في مناسبة أصواتها لمعاني الألفاظ، هذا التناسب البديع الذي يشمل الحروف والأصوات والمد والتشديد والتكرار، وكأن هذه الأصوات مرآة للمعاني تفصح عنها وتكشف أسرارها، يقول أبو الفتح ابن جني ـرحمه اللهـ: "اعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبَّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته، قال الخليل: كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدًّا فقالوا: صَرَّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعًا فقالوا: صرصر، وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفعلان: إنها تأتي للاضطراب والحركة، نحو: النقزان، والغلبان والغثيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سَمْت ما حدّاه، ومنهاج ما مثّلاه. وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير نحو: الزعزعة، والقلقلة، والصلصلة، والقعقعة (والصعصعة) والجرجرة والقرقرة. ووجدت أيضًا (الفَعَلى) في المصادر والصفات إنما تأتى

(١) السابق: ١٠٣ بتصرف.

للسرعة نحو: البشكى والجمزى والولقى"[١]، إلى آخر هذا الباب العظيم الذي لا نظير له في اللغات الأوربية التي يريد المستشرقون والمستغربون أن ننسلخ من تراثنا لاستيراد فكرهم وعلمهم وحضارتهم، "ولكن أصحاب الهوى الغربي تركوا هذا التراث الجليل بالإضافة إلى أنهم آثروا ترسم خطى الغربيين، وغدوا يرددون مصطلحاتهم دونما تفكر أو تدبر، ومثلوا في أفضل حالاتهم صورا شائهة لمفاهيم الغربيين وأصبحوا مروجين لآرائهم المنحولة"[٢].

وكذلك امتدت خصوصية اللغة لتشمل كتابتها، "فقد جاءت كتابة اللغة العربية كتابة صوتية قياسية في مجملها، أما الاستثناءات فهي استثناءات محدودة وتحكمها قوانين صارمة يسهل حفظها وإتقانها"[٣].

وفي المقابل تختلف كتابة كثير من اللغات عن أصوات نطقها دون قواعد ضابطة، حيث إن "كتابة الإنجليزية في الوقت الحاضر تعتبر من أنماط الكتابة المعقدة جدا...يتطلب فك رموزها وحل شفراتها زمانا وجهدا، وهي أبعد ما تكون عن أنماط الكتابة الهجائية القياسية...فالصوت قد يمثل بأكثر من حرف أو رمز، والحرف قد يمثل بأكثر من صوت، وقد يكتب الحرف في الكلمة دون أن تكون له قيمة صوتية مطلقا والعكس صحيح"[٤]، ولعل هذا الأمر الأخير يكون أكثر تعلقا بعلوم أصول اللغة إلا أن هذا البحث آثر عرضه حتى يفسر للقارئ سر فشل بحوث الاستغراب في الدرس

---

(١) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ) (٢/ ١٥٤) ،ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة.

(٢) منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة دراسة تقابلية، ١١٣.

(٣) السابق، ١٥٤.

(٤) السابق١٦٤ بتصرف.

البلاغي، فالفكر الغربي من واد والفكر العربي من واد آخر؛ لأن اللغة العربية متميزة عن هذه اللغات، سامية عنها، وتجديدها يكون فقط من خلال تراثها الأصيل ومنابعه الصافية.

ويضاف إلى هذين السببين الذين أفضيا إلى فشل هذه الدراسات ما ذكر في المبحثين الأول من عدم تأهل من تصدوا للبحث البلاغي من المستشرقين والمستغربين في اللغة العربية، حيث تتعذر هذه الدراسة عليهم، وتتعزز عن محاولات انتزاعها من أصالتها وتراثها، فلا مجال لتجديدها وللنهوض بدرسها البلاغي إلا من خلال تراثها العظيم الذي تركه علماء البلاغة الأجلاء الذين اغترفوا من نورها وتشبعوا بسليقتها العذبة وببيانها الرقراق، ورسموا الطريق لمن جاء بعدهم ليواصل المسير تجديدا لا تبديدا، والله _تعالى_ أعلى وأعلم وهو الهادي إلى صراطه المستقيم.

***

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة مع ظاهرتي الاستشراق والاستغراب وتناولهما العام للدرس البلاغي يخلص البحث للنتائج الآتية:

- إن ظاهرتي الاستشراق والاستغراب لم تتقابلا في الأهداف والغايات كما هما متقابلتان في الطباق بين لفظيهما، بل كان كل من التوجهين من أبناء الغرب في الاستشراق ومن أبناء العرب في الاستغراب يخدم _في أكثره_ فكرا واحدا وهدفا واحدا وغاية واحدة، وهو فكر الغرب وأهدافهم ورغباتهم.
- ظاهرة الاستشراق هي ظاهرة قام عليها مجموعة من الغربيين الذين تفرغوا لدراسة الحضارة الإسلامية والعربية، وصرفوا لها همومهم بحثا ودراسة وتحقيقا وترجمة، فكانت لهم إسهاماتهم الإيجابية والسلبية، فبعضهم درس حضارتنا وأبرز عظمتها، وكثير منهم طعن فيها وبث سمومه قدحا وكذبا وتدليسا، وفي جانب البحث البلاغي انحصرت الآثار الإيجابية على جانب التحقيق والفهرسة، كتحقيق المستشرق: (ريتر) لأسرار البلاغة، وكذلك المعاجم المفهرسة التي قام بها المستشرقون التي يمكن أن يستفيد منها البحث البلاغي في جمع وتصنيف مادته العلمية.
- أما جانب التأليف عند المستشرقين فهو الجانب الذي ظهر فيه العوار الكبير في نظرات المستشرقين القاصرة للبلاغة العربية بصفة عامة وأخص بالذكر مجالي إعجاز القرآن الكريم، ونظرتهم للشعر الجاهلي، فقد تناولتهما بحوث المستشرقين قبل أن يتحلوا بالأهلية التي تمكنهم من الإصابة في هذا المجال، فظهرت في بحوثهم مغالطات جمة واتهامات خطيرة.
- أما الاستغراب فمعناه في اللغة يأتي على معان كثيرة تعود في معظمها إلى معنى مغيب الشمس والجهة التي يحدث فيها هذا المغيب، وعلى هذه المعنى الأساس

فعند دخول الألف والسين والتاء على مصدر هذا المادة يكون معناها طلب ما عند الغرب من علوم ومعارف وفكر وثقافة، وفي الاصطلاح هو ظاهرة نفسية واجتماعية وثقافية معاصرة، يتميز الأفراد الذين يجسدونها بالميل نحو الغرب والتعلق به ومحاكاته، وقد أكد البحث أن هذا الميل والتعلق والمحاكاة للغرب لا يصح بحال من الأحوال مع دراسة البلاغة العربية.

- وقد ظهر عند المستغربين خلل كبير فيما قبل المنهج بالنسبة لهؤلاء الباحثين الذي هزموا نفسيا أمام هذا الفكر الآخر الذي أسرهم هواه حتى وقعوا في أخطاء جمة كان أبرزها شيوع الاتهامات التي وجهوها نحو البلاغة العربية.
- وكان من أوائل من تأثروا بالحضارة الغربية في الفكر البلاغي المعاصر الشيخ أمين الخولي ــرحمه اللهــ الذي كانت له رؤية أو صياغة جديدة لعلوم البلاغة، ولكن هذه الصياغة كان بها من العجلة والتسرع ما بها، حيث لم يقف الشيخ أمين أولا على معالم البلاغة الرئيسة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني ــرحمه اللهــ ومن حذا حذوه، بل اقتصرت نظرته على كتب المتأخرين ــرحمهم اللهــ فشاعت في بحوثه اتهامات جمة للبلاغة العربية ضمن نظرته للتخلية والتحلية في البحث البلاغي.
- وكان من أبرز رواد هذه الظاهرة الدكتور/ صلاح فضل في كتابه بلاغة الخطاب وعلم النص، والدكتور فضل ناقد كبير وأكاديمي متمكن في فنون الأدب والنقد واللغة، حصل على الدكتوراه من جامعة مدريد بإسبانيا، وهذا الكتاب هو نموذج واضح للتأثر بظاهرة الاستغراب، واعتبار أن الفكر الغربي هو المخرج الوحيد للتنوير بصفة عامة ولدراسة البلاغة بصفة خاصة، وشاعت فيه الاتهامات الموجهة للبلاغة إلى الحد الذي وصل إلى الدعوة إلى هدم البلاغة وعدم محاولة إحيائها مرة أخرى!

- وقد اتضح بجلاء أن كلا من الاستشراق والاستغراب قد فشلا فشلًا كبيرا في النهوض بالدرس البلاغي، بل شاعت في دراساتهم الاتهامات الباطلة للبلاغة والافتراء عليها والدعوة لهدمها وعدم محاولة إحيائها، وتبين أن دعوات التجديد كانت هي الستار الذي اختبأت وراءه لإبراز هذه الأفكار وعرضها في ساحة البلاغة العربية، ومع ذلك لم تنجح في تقديم الإضافات التي ادعتها، فلا هي حافظت على الأصول ونفضت عنها الغبار وأبرزت محاسنها، ولا نجحت في عملية الاستيراد الفكري الذي حاولت القيام به كان هذا التساؤل المشروع وهو لماذا فشل الاستشراق والاستغراب في النهوض بالدرس البلاغي؟.
- وقد عرض البحث إجابتين لتفسير فشل الدراسات الاستشراقية والاستغرابية في البحث البلاغي، والإجابة الأولى: أن البلاغة العربية تعلقت تعلقا كبيرا بإعجاز القرآن الكريم، ولم تنفك عنه بحال من الأحوال، فاللغة العربية هي لغة القرآن، منه اكتسبت قدسيتها، وبإعجازه تشرفت بلاغتها، وبالتالي كانت كل البدائل المطروحة للبحث البلاغي العربي مطالبة بتقديم إضافات مقنعة في هذا المجال وهو ما تعذر عليهم فعله.
- والإجابة الثانية التي عرضها البحث لتفسير فشل الدراسات الاستشراقية في تجديد البلاغة العربية هو خصوصية اللغة العربية في أصولها ومبانيها وأصواتها وكتابتها، مما يجعل تجديد بلاغتها أمرا مقصورا على العودة لأصولها العذبة، وإحياء جهود علمائها الكرام بتجرد وإخلاص.

وفي ختام هذه الرحلة البحثية أسأل الله _تعالى_ أن تكون هذه الكلمات خالصة لوجهه الكريم أن يجعل ما فيها من دفاع عن بلاغة لغة كتابة ذخرا لكاتبها يوم لقائه، وأن يغفر ما فيها من خطأ أو سهو أو زلل أو تقصير، إنه ولي ذلك والقادر عليه،

وصل اللهم وسلم على أفصح العالمين وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباحث: د/حامد محمود حامد عوض

مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدسوق جامعة الأزهر

تم بحمده تعالى في الخامس عشر من شهر رجب الحرام ١٤٤٢هـ

مدينة سيدي سالم، محافظة كفر الشيخ، جمهورية مصر العربية.

***

فهرس المراجع

١. القرآن الكريم.
٢. الاستشراق والاستعمار الفكري، علي عبد العظيم صابر، مكتبة توفيق بالقاهرة ٢٠٠٥م.
٣. الاستغراب في التربية والتعليم بالمغرب. طنجة: منشورات كلية الآداب تطوان، ٢٠٠٠م.
٤. الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر منشورات كلية الآداب تطوان، ٢٠٠٣م.
٥. أسرار البلاغة، تحقيق الشيخ محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
٦. الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر – ٢٠٠٢ م.
٧. بلاغة الخطاب وعلم النص، د/صلاح فضل، ط: عالم المعرفة، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت ١٩٩٢م.
٨. بيان إعجاز القرآن الكريم للإمام الخطابي(ت٣١٨)هـ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، طبعة دار المعارف الطبعة الثالثة.
٩. تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، ط: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٩هـ.

١٠.خصائص التراكيب، أ.د/ محمد أبو موسى، من مقدمة الطبعة السادسة، ط: مكتبة وهبة، الطبعة السابعة ١٤٢٧هـ.
١١.الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة.
١٢.الدراسات العربية في ألمانيا، تطوّرها التأريخي ووضعها الحالي، (البرت ديتريش) جوتنجن، ١٩٦٢ م.
١٣.دراسات المستشرقين حول صحة القرآن الكريم، ط دار العلم للملايين، بيروت،١٩٧٩ م.
١٤.ديوان حافظ ابراهيم ت:أ/أحمد أمين ،أ/أحمد الزين، أ/ابراهيم الإبياري، ط دار العودة –بيروت–لبنان –(د.ت).
١٥.رسالة في الطريق إلى ثقافتنا للشيخ أبي فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.
١٦.فن القول، للشيخ أمين الخولي، مطبعة دار الكتب المصرية،١٩٩٦م.
١٧.الفواصل القرآنية – دراسة بلاغية، د. السيد خضر، ورقة بحثية منشورة على شبكة المعلومات الدولية بقسم اللغة العربية –كلية المعلمين بالرياض.
١٨.لسان العرب، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.
١٩.لمحات في المكتبة والبحث والمصادر، محمد عجاج بن محمد تميم بن صالح بن عبد الله الخطيب، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: التاسعة عشر ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م.

٢٠.مداخل إعجاز القرآن الكريم، أبو فهر محمود محمد شاكر، ط مطبعة المدني ٢٠٠٢م.
٢١.المستشرق (هـ ـ ريتر)، ومقدمته عن أصول البيان العربي، قراءة في ضوء الاستشراق الألماني، أ.د حامد الظالمي، ص١٢٩، ط المركز الإسلامي للدراسات الاستشراقية، العدد السادس ٢٠١٦م.
٢٢.المستشرقون والدّراسات القرآنيّة، الدكتور محمد حسين علي الصّغير، الناشر: دار المؤرّخ العربي بيروت، الطبعة الأولى.
٢٣.المستشرقون والشعر الجاهلي بين الشك والتوثيق، د/يحيى وهيب الجبوري، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
٢٤.المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩ م.
٢٥.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، المقدّمة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٦٤هـ.
٢٦.منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة دراسة تقابلية، أ.د/ عبد المجيد الطيب عمر، ط مركز البحث العلمي وإحياء التراث، الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، الطبعة الثانية ١٤٣٧هـ.
٢٧.الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤م.

***